يوسف الخطيب

الحرب هي الحرب

ان الحرب هي الحرب ..

ليست الحرب دعابة ، ولا دعاية .. ولكنها بتعريفها القاطع الصارخ ، بحر من الدماء ، وأفق من النيران .

ولعل من حسن الحظ اننا نختلف مع العدو اختلافا بينا في فهم كل منا لطبيعة الحرب هذه :

فلقد تعود الغزاة الصهيونيون ـ خلال حروبهم التهريجية السابقة ـ ان يخوضوها فوق ساحات وثيرة من الزهور والحرير ، هيأتها لهم مسبقا حبائل المؤامرات الامبريالية الشريرة ، فوق ما لاءمتهم بعض ظروف الواقع العربي التي كانت سائدة بالامس ، والتي يبدو انها غدت بائدة اليوم .. وهكذا ، وعبر ربع القرن المنصرم من الزمن ، فلقد تكونت لدى الصهيونيين القناعة الساذجة التالية وهي : ان أية حرب اخرى سيخوضونها في المستقبل لن تكون الا مجرد نزهة سياحية ممتعة في مناطق اخرى من ربوع الوطن العربي . الا ان ما حدث ، يوم السبت الماضي ، قد كان بالنسبة للمقاتلين الصهيونيين أشد شبها برحلة دانتي في فيعان الجحيم !! ولعل هذه المفاجأة العكسية على طول الخط ، ستفيد ، في الغد القريب ، مثالا تطبيقيا حيا لطلاب العلوم العسكرية في شتى انحاء العالم ..

لقد تصوروا ايضا ان بأيديهم سيادة الجو المطلقة ، وان أعاجيب الفانتوم ـ خاصة في شارع السفارات بدمشق ـ ستجلب لهم الحظ ، وتدني منهم قطوف النصر .. الا ان ما حدث فعلا ، على ارض الواقع ، لا في سديم الخيال ، هو ان فرسان خيول الفانتوم قد أخذوا يهجرون صهوات طائراتهم المشتعلة في الجو ، او حتى قبل ان تنفجر على الاطلاق .. هذا على حين سجل مراسل أجنبي ان اطفالنا العرب كانوا ما يزالون يلعبون كراتهم القديمة الصغيرة في شوارع دمشق ، وان طفلة صغيرة كانت تقضم كعكتها بطمأنينة تحت السماء !!

لقد استقدموا ايضا ، الى الارض المحتلة ، عشرات الصحفيين من مختلف انحاء العالم ، بغية ان ينقلوا الى الرأي العام العالمي أساطير جديدة مسلية حول ما يوصف « بجيش الدفاع الاسرائيلي » ـ دون كيشوت القرن العشرين ـ وكيف سيختتم المعركة بضربةواحدة ذات اليمين ، وبضربة اخرى ذات الشمال !! الا ان ما حدث فعلا هو ان هؤلاء الصحفيين البؤساء قد حجر عليهم ما يشبه الحجر الصحي في كرنتينا وزارة الاعلام الصهيونية بسبيل حقنهم بما ترغب الوزارة ان تحقنهم به من معلومات صبيانية ، او قد لا تجوز احيانا حتى على الصبيان .

هذه المرة فقط ، بدأ العدو الصهيوني يستيقظ على الحقيقة المجردة التالية : وهي ان الحرب هي الحرب .. وانها ليست دعابة ، وانها ليست دعاية ، وانما هي بحر من النيران ، وافق من النيران.. وان على الغزاة المعتدين ان يسددوا بين ايدينا قائمة حساب شهدائنا الابرار .

البعث
١١ تشرين الاول

تحرير النفس أولا ثم يأتي تحرير الارض

في اعتقادي ان الهزيمة الكبرى التي حلت بأمتنا العربية في حرب حزيران الاسود ، لم تقع وطأتها على ساحة العمليات العسكرية، قدر ما انعكست آثارها على النفس العربية بأسوأ الآثار .

لقد وقع يومئذ احتلال للارض .. ولقد كان احتلالا فادحا ، فاق في اتساع رقعته ثلاثة اضعاف الشريحة الفلسطينية المحتلة منذ سنة ١٩٤٨ ، والمعروفة بقوة الامر الواقع ، « باسرائيل » .

الا ان ذلك كله كان احتلالا قائما على السطح وحسب .. وهو لم يكن ذي بال مطلقا بالقياس الى ذلك الاحتلال الآخر الرهيب الذي أخذ ، على الفور ، يستهدف أعماق النفس العربية ، بضرب روحها المعنوية في الصميم ..

ان احتلال الارض ، في ذاته ، مسألة قديمة جدا قدم تاريخ النوع البشري .. بل لقد اغتصب اليهود انفسهم فلسطين نفسها قرابة أربعمئة سنة ، ما بين القرنين الحادي عشر والسابع قبل الميلاد . ولقد دونوا في اساطيرهم منذ ذلك الزمن السحيق انهم ذبحوا اهل « اريحا » عن بكرتهم ، باستثناء الزانية « راحاب » لانها اوت الى منزلها جواسيس « يشوع بن نون » . فمذبحة دير ياسين اذن ، او مذبحة قبية ، او مذبحة كفر قاسم ، لا تنهض وحدها في الفراغ ، وانما تستمد نسغها الدموي من مذبحة اريحا قبل ثلاثة آلاف سنة !

وحتى امسنا القريب جدا ، والذي ما يزال حيا في الذاكرة بعد، فان الجيوش الهتلرية قد اجتاحت ، كالجراد الجائع ، رقعة القارة الاوروبية كلها تقريبا ، من امواج المحيط الاطلسي حتى مداخل موسكو فيما يشبه تنفيذ بيان عملي عسكري ، ان جاز لنا ان نستعير عبارة الفريق الشاذلي في مثل هذا السياق .

ان احتلال الارض اذن ، ليس هو المؤشر الحقيقي .. وانما نفع الهزيمة فعلا باحتلال الروح المعنوية للجماهير ، عن طريق ذلك الجيش الرهيب ، اللامرئي واللامحسوس في معظم الاحيان ، ألا وهو جيش القنوط ، واليأس ، وعدم الثقة بالنفس ، مقرونا في آن معا بالتهويل في قوة العدو ، وبالتقليل من شأن مقاومته ، ما دام هو الذي انتصر على ارض العمليات .

غير ان ما حدث ظهيرة يوم السبت الماضي ، قد صحح فيما لا يتجاوز ست ساعات خاطفة ، جميع الاوهام والقناعات الخاطئة التي ظلت تعشش في بعض الاذهان طيلة ست سنوات !!

وهكذا .. ففي اعتقادي الجازم الآن اننا نخوض معركة تحرير حقيقية وظافرة .. معركة تحرير لا تقاس ، ويجب ألا تقاس ، بعدد الكيلومترات من التراب العربي التي توغلناها في كل من الجولان وسيناء .. وانما تقاس ، ويجب ان تقاس ، بحقيقة التحرير الكامل الشامل للنفس العربية من ذلك الوهم العتيق الذي يطلق عليه « جيش الدفاع الاسرائيلي » .. فها هي صورة الغول الرهيب قبالتنا تماما .. ولقد تمزق عنها القناع دفعة واحدة والى الابد .. ولقد انطلقت النفس العربية ، حرة ، جريئة ، نقية كالشمس ، من ربقة الوهم الخادع ، ومن جوف ظلام اليأس ..

ومن تحرير النفس العربية اولا .. سيكون تحرير الارض .

البعث
١٢ تشرين الاول